عطر المنصور

للأستاذ رفعت فتح الله

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

وأمر المنصور حاجبه أن يستقدم سعيداً ، ثم يستقدم زوجه ، فلما قدم سعيد رأى فى الفناء حبيباً مع صاحب الشرطة ، فتعجب ، وقال : أنت أمامى هنا وهناك ! ! ثم جد فى السير كأنه يفر ، حتى دخل على المنصور ، فسلم وحيا ، وبدت فى عينيه نظرة الاهتمام .

قال المنصور : أتعرف الرجل الذى صررت به فى فنائنا ؟

قال سعيد : أعرفه

قال المنصور : أبينكما صداقة ؟

قال سعيد : بيننا شىء

قال المنصور : كيف وجدته ؟

قال سعيد : وجدته رجلاً لا يعرف قيمة المال

قال المنصور : وكيف وجدت عقله ؟

قال سعيد : هو رجل يروى أدباً ويقرض شعراً

قال المنصور : هل تتزاوران ؟

قال سعيد : قد يزورنا

قال المنصور : ولكنك لست فارغاً للشعر والأدب !

قال سعيد : إن زوجى تحب الشعر والأدب ، فإذا حضر تناشدا الشعر وتقارضا الأدب ، حتى إذا أفلس أديبه قام عنا

فهمس المنصور : وهل يفلس الأدب كما يفلس المال ؟ ! ثم قال : لعلك ترغب عن حديثه ؟

قال سعيد : إن أكثر كلامه لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فكيف أرغب فيه ؟

قال المنصور : أولست ترى له خيراً ترتجيه ؟

قال سعيد : إنه ليس غنياً أرتجيه ... غير أنى ...

فبادره المنصور قوله : غير أنك قد استفدت منه !

فاضطرب سعيد وقال : قد كان له جاه وجهه فى غرض تجارتى ، وله رأى رآنى به فى بعض أمرى ، وإنى لأعجب من جاه لا مال معه ! ومن لسان لا يد له !

قال المنصور : أتنكر مروءته ؟

قال سعيد : لا ، ولكنى وددت لو كان غنياً لم تدركه حرفة الأدب

قال المنصور : وطهارته ؟

قال سعيد : لم يذكر الناس فيه رجساً وأسكتا !

ولما قدمت حبيبة أبصرت فى طريقها حبيباً وهو على حيرته ، يستحثه صاحب الشرطة ؛ فأنكرت بصرها ، ورنت إليه ، وأطال العجب رنوها ، وألهم حبيب النظر نحوها . فالتقت العين بالعين ، ووجب القلب للقلب ، ثم أخضع الأمى عينيه ، وأسجد جفنيه ؛ فسارت نحوه مضطربة السير ، قد مد الاستفهام ذراعيها ، وابتدر سؤاله فمها . قالت : مالك ؟ فقص عليها قصته . فهزت رأسها وقالت : فهمت ... فهمت ... لقد فاح ذكاء المنصور عطراً ، فتعصبه شركاً ؛ إنه صواع الملك فى قصة يوسف ! (وغمزت بعينها وضحكت) ؛ ثم قالت بصوت حزين : يا حبيب ... أعط الخليفة الهدية !

قال حبيب : لقد كانت سلة تحمل طابع الحب ؟

قالت : إن حبنا معنا ، وأما هذا الطابع فنحن الذين طبعناه ، ونحن إذا شئنا محوناه ، ليعود خاتمها الأول ... خاتم البخل ؛ فلقد يغلط البخيل فتكون غلطته جوداً ، ثم ينقلب معنى الجود فى نفسه ندماً . ولقد علمت سعيداً بخيلاً ، يكاد يسترجع قيئه إذا ذكر أنه كان طعاماً ! !

فاشمأز حبيب شمأزيزة المال ، واطمأن طمأنينة الحب ، ونادى صاحب الشرطة حيث وقف جنبه ، فقال له : قد رضيت حكم الخليفة ، وإنى ذاهب لأحمل المال إليه . فقال صاحب الشرطة : أرحت واسترحت ! وأمر شرطياً أن يذهب معه فيحمل عنه ؛ ثم ذهب إلى الخليفة فى سكانه ، فأسر إليه رضى حبيب بحكمه ، فتبسم ضاحكاً !

والتفت المنصور إلى سعيد وقال : إيه !

فنظر إليه سعيد نظرة تتألق بطلب الحديث !

قال المنصور : ألا يزال حديث المال يتردد فى نفسك ؟

قال سعيد : إنه يتردد مع أنفاسي ، ولقد بتُّ الليلةَ ضجيع خياله !

قال المنصور : كأنه امرأة ثانية !

وضحك ثم قال : أرأيتَكَ إن رددت عليك مالك بعينه أتحكّمني في امرأتك ؟

فأشرق وجه سعيد كثيراً ، وأغيمَ قليلاً ؛ ثم قال : نعم

قال المنصور : دعني إذن أستخلصه لك ، واجلسْ عند الآذِنِ قليلاً حتى يأذَنَ لك بالحضور مرة أخرى

فخرج سعيد متفائلاً ، وهو يجمجم : نعم العطر !

فاهتز المنصور ضاحكا ، وهو يزمزم : نِعم ذكاؤه !

* * *

ودخلتْ حبيبة تتهادى ، وقد ربط التجلد على قلبها ، فبدا وقارُها ...

قالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين والمؤمنات

قال المنصور : وعليكِ السلام أيتها المؤمنة

قالت : أحب أن أشكر أمير المؤمنين على عطره الذكي ؛ فقد كان بشيرَ يُمنٍ لزوجي ، وأرجو أن يمسي يمنه كذلك

قال : ولكني أظنكما فرطتما فيه

قالت : ما وضمناه إلا حيث تخيرنا ، عسى أن ينتشر طيبُه على الطيبين

قال : « والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات » وابتسم !

فانتفضت وقالت : « أولئك مبرؤون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم » !

قال : أوليس زوجك طيباً ؟!

فارتجفت وقالت : إنه طيّب المال ، يجري حبه في دمه ، كأنه ابن الدوانيق ...

فاربدّ وجه المنصور غضباً وقال :

أتتعرضين بكنية « أبي الدوانيق » التي كنّاني بها بعض المرجفين في المدينة ، إذ رأوني — حين بنيت بغداد — أباشرها بنفسي وأحاسب الصناع وأجازي المهندسين ، فظنوا أني فُتنتُ بالدرهم والدانق ، وإنما راقبت ربي فراقبت عملي ، وقومتُ أمري فأرضيت نفسي ، وما أنا بمفتون أو بخيل ، ولكني رأيت كثيراً من الناس عبيد المال ، فأمسكته لهم ، ليكونوا عبيداً لله وخليفته !

قالت : إني أجلُّ أمير المؤمنين أن أغمزه بتلك الكنية ، فلقد رعيتَ المال : كثيرَه وقليله ، دينارَه ودانقه ، فكنتَ أباه ! وأما سعيد ، فقد حكمه المال وتولاه ، حتى صار خادمه ومتبناه !

فتساير الغضب عن وجه المنصور وقال :

— إني أكبرُ عقلك !

قالت : وهل أكبرتَ عقل سعيد ؟

فنظر إليها المنصور وسكت ثم قال :

— أراك برزةً ! !

قالت : ما رأى مني أحبُّ الناس إليّ إلا ما رآه الخليفة من وجهي ويدي ، فما ضرني أن أكون برزة ؟ ! إنما خلق الله المرأة رُجلةً ولم يخلقها جِنة ! وجعل اللسان حجة ولم يجعله عورة ! وإن المرأة التي تخشى الرجال هي التي أخشى عليها الرجال ... ! أليس الله أحق أن تخشاه ؟ !

ولقد حجبتُ نفسي بالعفاف ، فبلغت غاية الحجاب ؟

— أظن سعيداً معجباً بعفافك ؟

— يُعجب بعفاف بعد أن يعجب بماله !

— هو سعيد بك

— لو وجد هواه مع غيري لكان أسعد !

— وأنت سعيدة ؟

— اسمي « حبيبة »

— ليست الأسماء حقائق

— قد تكون الأسماء آمالاً ، ألم يسم أمير المؤمنين قصره « الخلد » ؟

فنظر إليها المنصور نظرة رائعة ثم قال :

— وكيف تزوجت إذن سعيداً ؟ !

— تعارفنا بالأسماء وتقاربنا بالأنساب ، فتزوجنا ، وقد كان قلبي على فطرته ينبض كما كان ينبض منذ ميلادي ، وكان زوجي يرعاني كما يرعى إحدى قريباته ، ويحبني كما تحبني إحدى قريباتي ... وقد رأيته يتاجر فساعدته ، وساعده الحظ معي ، حتى أثرى ، فكشف ثراؤه عن نفسه ، وتجسد أمامي حبه للمال ، يستكثر ولا يستكثر ويبخل ولا يستمتع ، والمال تجاهه سلسلة لا تنتهي حلقاتها ، كلما جذب حلقة بانت له أطراف أخرى تجري إليها ... فكرتُ وقدرت ، فإذا موضع المال من قلبه في الأعماق ، وإذا موضعي من ذلك القلب على الشط : أحمل دلوي لأغرف له ، كأن عقد الزواج من عقود المال ، وكأني شريكته في متجره لا في بيته .

غير أني شريكة لا تشارك في ربح ولا تطالب بأجر ! ! وكيف يراني أو يسمعني وقد طرفت الدنيا عينيه ، وسدت أذنيه ؟ ! وهكذا حفر في قلبي أسفاً ! وتتالت الأيام على حفر ذلك الأسف ، فكان غضباً ! وبالغت الشهور في حفر ذلك الغضب ، فكان كرهاً ! ...

هناك سمعت من حفيرة قلبي دقاته الجديدة ، تخلتْ خفقانه وقع المعاول ! ... أنا لم أولد على دكان ربوى شحيح ، ولم أنشأ في رَحل بدوي غليظ ، فقد كان أبي أديباً طبعني على أدبه ، حنّاناً أرقّني بحنانه ، فكيف أعيش في كنز أصم رنينه ولا يسمع أنيني ؟ طار قلبي عن بيتي ، فلم أدر : كيف يقع ؟ وأين يقع ؟ ولكني أحسست صدري فارغاً ، قد طلاه الأسى بسواد ، يعلن الحداد ! ثم رأيت — في من رأيت — فلاناً

فابتسم المنصور ابتسامة المعرفة ، واستكملتْ قولها :

تعرفتُه فتبينت فيه العفافة ، وتأملته فتأولتُ فيه المروءة ، رأيته شاهر النفس واللسان ، رقيق القلب والبيان ، فأحسستُ أن قلبي قد هبط معه ، فما قابلته حتى تحادثت حرةٌ في الوجهين ودُفٌّ عُرْسٌ في القلبين !

قال المنصور : حسبكِ ! فإني أخاف عليك الغرق والإغراق

قالت : قد بلغنا الساحل ! (وأشارت إليه)

قال : وأين واجب الزوج ؟

قالت : قد عرفت الواجب فرعيته ، وقدرت الأمانة فأديتها ؛ وما أثقلَ الواجبَ والأمانة إذا وغلتْ فيهما الكراهة ! وأمير المؤمنين يعلم أن الله قد شرع الزواج إلفة لا نفرة ، وشرع الطلاق ضرورة يلجأ إليها المضطر لا المغتر ؛ ولكن كثيراً من الناس تعاموْا عن حكمة الله ، فاتخذوا الزواج مواجهة وجهين ، لا معاقدة قلبين ! وارتكبوا الطلاق مطية غرور لا قضية فور ، وما أحكم قول الله : « فأمسكوهنّ بمعروفٍ أو سرحوهنّ بمعروف ، ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ! »

* * *

واستأذن حبيب فأُذن له ، ودخل مع المال يحيي الخليفة ، وابتسم لحبيبة ابتسامة ردّتها بأحسن منها ، ثم قالت : إن هذا المال لحبيب . إذ أهديته إليه ، وقد كان مالي من قبل إذ أهداه لي زوجي ، فما أبعد زوجي عنه !

قال المنصور : ألا تفتديان به قلبيكما ؟ !

قال حبيب وحبيبة معاً : نعم الحكم أميرُ المؤمنين !

ثم ابتسما في خجل من تطابق الصوتين على الجواب ، فابتسم المنصور ... وأخذت العيون تسارق النظر : فالمنصور يرخي طرفه ثم يلمح الحبيبين ، وكل واحد منهما ينظر إلى صاحبه والخليفة نظرة مقسمة بينهما ، كأنها نظرة الأحول ، وما أروع نظرات الحوَل المستمار ! وأذن المنصور لسعيد بالحضور فخضر بدير عينيه !

قال المنصور : أهذا مالك يا سعيد ؟

فرنا سعيد فرحاً ؛ ثم قال : هو يا أمير المؤمنين

قال المنصور : خذه كما أشرت ، وقد طلقت امرأتك كما شرطت

فرفع سعيد رأسه ينظر إليه ، ويقول : ولكنني رأيت عندها حباً وإخلاصاً !

قال المنصور : لقد أدت واجب الزواج فظننته حباً ، ورعت أمانة العفاف فحسبته إخلاصاً ، وما ربط قلبيكما خب ، ولا جمع كبديكما ولد ... على أنني قد تخيرتُ لك امرأة على هواك اسمها « سعدى » يا سعيد !

قال سعيد : الخيرة ما اختار أمير المؤمنين ، وأنا أدرج بدية

والتفت المنصور فجأة إلى حبيبة وحبيب ؛ فإذا هي قد سدلتْ جفنيها ، وحدرتْ من نحتهما إلى حبيب نظرةً قد رويتْ من قلبها ، بحبها ! وإذا هو معقود النظر بها ، كأنما نفثت فيه من سحرها !...

فهمس المنصور : خُلقتْ هواك كما خلقتَ هوى لها !

ثم قال لهما : جمع الله بينكما بشرعه

ثم أذن لهم جميعاً ، فخرجوا راضين ، وهو يقول :

الحمد لك ، الآن تلاءمت الأسماء ، والتأمت الأهواء

وبعد أيام زُفت سعدى إلى سعيد ؛ وزف مالها إلى ماله ، فتواصيا بالاكتناز ، وتباهتا على الاكتساب ؛ فما أصبحتْ ليلة الزفاف حتى أمسكا دفتر الحساب !

وبعد أشهر زُفتْ حبيبة إلى حبيب ، وزُفّ حبها إلى حبه ، فوري القلبان بنار الشوق ، كأنهما زنداه ! وتلاقى الفمان على قبلة الـ « حب » كأنهما حرفاه ! واستبدتْ بهما القبلة ، فتطاعم المتلاثمان ، كأنهما حمامتان !

رفعت فتح الله

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)